البحث عن الشخصية المصرية
عند شوقى ضيف

د. أحمد يوسف

تزدهر الحياة الثقافية بعطاء الأعلام، وحياتنا العلمية والثقافية الحديثة أبدعها أعلام مصريون جيلاً وراء جيل، وكان جيل الرواد صاحب مهمة التنوير، والجيل الذى تحمل مسئولية تمهيد التربة وانتقاء البذور الصالحة للإثمار والإنبات، وترك هذا الجيل تلاميذ على الدرب، وعوا أبعاد مهمة التنوير بشقيها التاريخى والمعاصر، وأستاذنا شوقى ضيف واحد من هؤلاء الأعلام الذين ارتبطوا بتاريخ أمتنا العربية الإسلامية وبتراثها، فقدموهما - التاريخ والتراث - متجادلين فى صور أبحاث علمية تميزت بالشمول والموسوعية، ولأن التاريخ والتراث، هو تاريخ حضارة ذات مستويات معرفية وإنسانية وفلسفية وأدبية متعددة، لأن تراثها يعد دالا قويًّا على خصوبة هذه الحضارة، فإن القارئ لأى بحث من أبحاث أستاذنا تقع عينه دائمًا على الطبيعة الموسوعية لما قدمه هذا الأستاذ الجليل.

ولئن كانت طبيعة المادة العلمية المستقاة من تراث الحضارة العربية الإسلامية سببًا مباشرًا من أسباب هذه الصفة الموسوعية لما قدمه شوقى ضيف، فإن هناك سببًا مباشرًا آخر، لا يمكن تجاهله أو إخفاؤه، وهو أنه تأثر بجيل الرواد الذى اقتضت منه مهمة التنوير، والقضية الوطنية المصرية - الحرية والاستقلال - أن يلتفت التفاتة قوية وفعالة إلى التراث الحضارى والتاريخى للشعب العربى والمصرى، كما التفت أيضًا إلى معطيات الحضارة الأوربية الحديثة والمعاصرة، ولا نزعم أن شوقى ضيف التلميذ، كان صدى مباشرًا لأساتذته فى كل خطوة من خطواتهم، ولكننا نعتقد أنه اختار طريقه بحرية شديدة داخلها إعجابه الواضح بأستاذه طه حسين، وأحمد أمين فى الجامعة، والعقاد ومواقفه السياسية وهو خارج الجامعة، ويؤكد ذلك ماورد فى الكتيب الذى كتبه أستاذنا شوقى ضيف مترجماً جوانب من حياته وعلاقاته بأعلام جيل الرواد، وهم فى خضم المعترك السياسى والعلمى والاجتماعى.

وقد أفرزت هذه الصفة الموسوعية صفة أخرى اقترنت بها، ونبتت فى مهادها، وهى الاهتمام بالسياق التاريخى لما يدرسه من ظواهر، أو يحلله من قضايا، وهما صفتان رأيناهما فيما قدمه أعلام

جيل الرواد غير أنها تأصلتا فى كل كتابات شوقى ضيف، الذى امتلك إلى جانب ذلك صفة الاعتدال فى منهجه من حيث الأحكام والتحليل والتفسير، كما اهتم بجمع الوقائع التاريخية الخاصة بكل ظاهرة.

وقد تبدى هذا الحس الموسوعى والتاريخى لدى شوقى ضيف منذ بداية حياته العلمية المثمرة، حينما توجه عقله إلى كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى باحثًا عن ظاهرة النقد الأدبى، وتطورها على امتداد العصور التاريخية التى أرخ لها هذا الكتاب، وهى عصور ممتدة حتى القرن الرابع الهجرى، وكان هذا التوجه المبكر أول علامة على تفتح وعى الشاب الباحث شوقى ضيف على تاريخ أمته وتراثها، فحدد موضوعه فى «النقد الأدبى فى كتاب الأغانى» ليكون أطروحته الأولى، وقد فرض هذا الموضوع منهجه التاريخىّ، كما فرض كتاب الأغانى نفسه الحس الموسوعى الذى نما، وازداد عند أستاذنا شوقى ضيف فهذا الكتاب من ناحية كتاب يمكن أن يوصف بالموسوعية، فهو لا يقدم التاريخ الأدبى لفن الشعر فقط بل يقدم أيضًا صورة حضارية واسعة، لنموذج الحياة الغنائيو والموسيقية والاجتماعية، والسياسية، كما رآها مؤرخ عاش فى القرن الرابع الهجرى، ومن ناحية أخرى اعتمد الأصفهانى التقسيم السياسى للعصور، والسرد التاريخى والرواية نهجًا لكتابه، ومن ثم فإن هاتين الصفتين الحس الموسوعى والتاريخى، كانت لهما بداياتها العلمية فى حياة الباحث الشاب شوقى ضيف.

وقد تأصل هذا الاتجاه البحثى عنده، فى أطروحته الثانية «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» فمن حيث النهج التاريخى، صار الاعتماد على التقسيم السياسى للتاريخ مرتبطًا بالدول قيامها وقوتها وزوالها أساسًا من أسس تناول الظاهرة الأدبية التى أصبحت عنده مرتبطة بهذا التقسيم من حيث نشأتها، وازدهارها، وخفوت صوتها أو اختفاؤها.ويتواكب مع هذا التقسيم السياسى، تحديد ملامح العصر المدروس أو العصور اجتماعيًا وثقافيًّا وعقليًا، ويضاف إلى ذلك أن هذا الموضوع يتناول تحديد المذاهب الفنية التى رآها أستاذنا شوقى ضيف، أطرًا تضمنت إبداع الشعراء العرب والمسلمين، وهى أطر لم تقف عند عصر ما من العصور، بل إنها امتدت إلى جميع العصور الأدبية، وكان هذا المدخل المنهجى يتطلب تحديدا لنماذج التى تعكس هذه الأطر، لذلك اختار أستاذنا الأعلام من الشعراء فى المشرق والمغرب على امتداد تاريخ الشعر العربى، على أساس أن كل علم منهم يمثل عصره الذى عاش فيه تمثيلاً يعكس درجة الذوق الفنى، والسيطرة على أداة الفن الشعرى.

(٢)

وهنا يبرز سؤال: ما الهدف الفكرى وراء هذا الاتجاه الموسوعى، الذى يعكس اهتمام أستاذنا بتاريخ الحضارة العربية وتراثها؟، إن هذا الاهتمام - فى الحقيقة - لم يقف عند الشعر، كما يتبادر إلى الذهن، بل تخطاه إلى دراسة فن النثر على امتداد تاريخ الكتابة العربية، وإلى دراسة تواريخ الأدب بعامة فى ضوء عصوره المعروفة سياسيًّا، وإلى دراسة البلاغة والنقد القديمين، والنقد الحديث ومقاييسه، كما تخطى كل ذلك إلى الدراسات الإسلامية بما فيها تاريخ الحديث والقرآن والتفسير ومذاهبه، وما يتصل بها من دراسة علوم اللغة، كالنحو والصرف، ومدارسها، وتضاف إلى كل ذلك، تحقيق بعض ذخائر التراث التى تخدم اتجاهه المعرفى.

ويمكن القول - إن أستاذنا اهتم بمستوى معرفى أصيل من مستويات الحضارة العربية الإسلامية يمكن أن نسميه بعلوم الأدب والبلاغة والنقد، وهو مستوى التقى بمستويات أخرى فلسفية وتاريخية ونفسية من أجل هدف أساسى، هو الكشف عن الدور الزائد للحضارة العربية، وهو بلا شك دور تاريخى حدد شخصية الأمة العربية، التى أصر أستاذنا على أن دورها مرتبط بطبيعتها الخالدة، المستمدة من وحدة الثقافة والتاريخ والتراث، ومن مركزية هذه الثقافة.

فعلى الرغم من العداء السياسى بين الأندلس وبغداد، فإن بغداد ثقافيًّا كانت النموذج المحتذى ثقافيًّا واجتماعيًّا، ويرى أن مركزية الثقافة على مختلف عصور الحضارة العربية، هى التى طبعت الأدب العربى بطابع المحافظة شكلاً ومضمونًا، وجعلت بلدًا كمصر - وهى ولاية حينئذ - ليس به شاعر واحد، يطاول أبا نواس أو أبا تمام أو المتنبى.

إن هذه الطبيعة الخالدة، هى التى يمكن أن نراها عند شوقى ضيف، حين يكتب عن البارودى، أو أحمد شوقى، أو عن على محمود طه، وناجى، أو عن محمد عبده والعقاد، كما يكتب عن أبى تمام والمتنبى وأبى العلاء، على أساس فكرى واحد وهو أن الأعلام يحددون ملامح شخصية الأمة.

إن تحديد ملامح الشخصية العربية، كان الهدف الأساسى الذى وقف وراء كل اهتمامات شوقى ضيف، مع هذا الهدف فإن البحث عن ملامح الشخصية المصرية كان هدفًا نبيلاً لم يفارق أستاذنا.

ويمكن القول إن هذا الهدف كان مطلبًا ملحًّا عند جيل الرواد، وعند تلاميذهم الذين

واكبوهم فى ظل ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية ليس هنا مجال تفصيلها، ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى محاولتين: كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» وهو محاولة هدفها تحديد انتماء العقل المصرى - فى الثقافة والعلم - إلى الشرق أو إلى الغرب ليرد على غلاة التعصب، بأن وحدة الثقافة فى العالم القديم لا تجعل عقلاً يتمايز على عقل، فمصر القديمة بدولها المتوالية لم تكن ذات صلات وثيقة بالشرق الأدنى، أو الأقصى، مثلما كانت على صلات قوية باليونان وثقافتهم إلى حد أن الحضارة المصرية أثرت تأثيرًا لا سبيل إلى نكرانه على اليونان، والرومان، كما تأثرت هى فى دورة أخرى بالحضارة اليونانية والرومانية، كما أكد طه حسين أن العقل المصرى ليس شرقيًا بالمعنى الثقافى، على الرغم من أن المصريين حريصون على شرقيتهم ثقافيًا وجغرافيًا، ومن ثم فإن طه حسين يريد أن يخلص إلى أن الشخصية المصرية شخصية تاريخية مستقلة، وأنه لا فرق بين العقل المصرى والعقل الأوربى اعتمادًا على البحث التاريخى فى التأثير الثقافى.

أما المحاولة الثانية، فهى التى قام بها الشيخ أمين الخولى فى دعوته إلى أهمية الإقليمية فى درس الأدب، وخاصة عندما دعا إلى البحث عن أدب مصر الإسلامية، وهى دعوة هدفها تحديد الدور الذى قامت به مصر فى ظل الدولة الإسلامية أدبيًا، فلماذا لم تجد آثارًا أدبية بارزة فى مصر الإسلامية كالتى قدمتها بغداد، ودمشق والمدينة والأندلس على الرغم من أن مصر تتمتع من بين الأقاليم العربية ببيئة جغرافية متميزة وبيئة حضارية فعالة، وأن الفاتحين لم يقولوا شعرًا يبلغ مستوى ما قالوه عندما استوطنوا الكوفة والبصرة وبغداد أو دمشق، مع أن الفاتح هو نفسه الإنسان العربى هنا أو هناك.

(٣)

هاتان المحاولتان تهتمان بتحديد ملامح الشخصية المصرية من خلال دورها الثقافى المتفاعل، مرة مع جيرانها من اليونان ومرة أخرى مع من استقبلتهم من العرب الفاتحين، وشوقى ضيف صاحب هم عظيم فى هذا المجال، فهو من المؤمنين بمركزية الثقافة العربية وطبيعتها المحافظة الثابتة كما أشرنا، وبأن الكل دائمًا يعبر عن أجزائه، وهو المنتمى إلى مصر تاريخًا وتراثًا وعاطفة ووجودًا وما بين الإيمان والانتماء بون شاسع، استطاع أن يتجاوزه انطلاقًا من أن البحث عن ملامح الشخصية المصرية إن لم يتحقق بتحديد انتماء العقل، كما حاول طه حسين، وإن لم يتحقق فى ظل إيجاد أدب مصرى إسلامى، فإنه من الممكن أن يتحقق فى صفة من الصفات التى قد تغلب، فتطبع الأدب أو الفكر بطابع معين، من هنا كان كتابه «الفكاهة فى مصر».

إن هذا الكتاب - على الرغم من صغره ومن كونه ليس كتابًا من كتبه المشهورة والمعروفة،

لدى الغالب من الباحثين فإنه مع ذلك يعد من أهم ماكتب شوقى ضيف، فى إطار اهتمامه بالبحث عن الشخصية المصرية ودورها التاريخى، وعما تمتاز به، وقد نشر هذا الكتاب أول مرة عام ١٩٥٨ من دار الهلال، وتبدو أهميته من زاويتين نراهما: أن أستاذنا على رأس المهتمين بالأدب العربى والمصرى المكتوب بالمستوى اللغوى المعروف بالفصيح، هذا الأدب الذى يمكن أن نسميه - كما سماه هو - بالأدب الفصيح الجاد، وهذا الأدب كان إلى عهد قريب مستحوذًا على اهتمام العلماء والمتذوقين على السواء إذا ماوضع فى مقابلة الأدب العامى أو الشعبى، وهذا الكتاب يركز كل اهتمامه على استكشاف ما يميز الشخصية المصرية من غيرها من خلال نصوص كتبت باللغة العامية، أو الدارجة كتبها شعراء أو زجالون لم يدرجوا فى سجل التاريخ الأدبى المعروف، ومن ثم فهو إضاءة قوية لبقعة من بقاع الإبداع والوجدان، طال نسيانها وإهمالها. أو كما قال أستاذنا التعالى عليها، إنه بذلك خروج على المألوف من أستاذ جليل فى جامعة رائدة محافظة، فى وقت كان يعد فيه هذا الخروج مخاطرة، فالاعتصام «بالأدب الجاد» فيه أمن كبير، ونفع لصاحبه كثير، ويؤيد كلامنا هذا أن أستاذنا لم يعد المحاولة مرة أخرى فيكتب كتابًا آخر فى الاتجاه نفسه، ويكفى أنه بهذا الكتاب ترك بقعة ضوء فى مكان مظلم، واكتفى بذلك معتصمًا بأبحاثه الكبرى فى الأدب الجاد.

أما الزاوية الثانية التى تبلور أهمية هذا الكتاب، فهى الاستجابة القوية لنداء الواقع، وحركته السياسية والقومية آنذاك، سواء تم هذا بوعى مقصود أو غيره، فقد واكب إخراج هذا الكتاب الإرهاصات القوية حول البحث عن دور الأمة العربية فى الحاضر، وبعث هذا الدور يتطلب تحديد معالم هذه الأمة ممثلة فى تحديد معالم أقطارها، وقد حملت مصر - فى هذا السبيل - الدور الرائد سواء على مستوى التوحيد القومى، أو على مستوى ريادة بعث الروح فى جسد هذه الأمة. وكان طبيعيًا أن ينشط البحث عن مميزات الشخصية المصرية، سواء فى تاريخها الفرعونى أو الإسلامى، أو فى كونها بوتقة جمعت محتوى حضارات العالم القديم.

والكتاب من هاتين الزاويتين يعد مهمًا، كما يكتسب أهمية إضافية لأنه يقف عندما عرف وشاع عن المصريين، من روح المداعبة والفكاهة إذ يقول «من أهم ما يميز المصريين فى عصرهم الحديث روح الفكاهة المنبثة فى أحاديثهم.. وليست هذه الروح جديدة على المصريين فهى قديمة فيهم، ترجع إلى أعتق الأزمنة وأعمقها فى التاريخ، فمنذ برزوا على صفحة الزمن، وهم يضحكون ويسخرون ويتهكمون»[١].

ومن الواضح أن هذا التوقف يستند إلى التاريخ، فى تحليل هذه السمة التى اتسمت بها الشخصية المصرية، كما يقف عند بواعثها وظروفها وإطارها الحضارى الذى نشأت فيه، فيرى

(١) شوقى ضيف - الفكاهة فى مصر - دار الهلال - مصر - ١٩٥٨ - ص ٧

أن الإنسان المصرى لم يكن يمرح إلا فى وقت الشدة، ولم يكن يسخر إلا فى وقت الجد «قد ألهمتهم ذلك عصور الشدة والرخاء، منذ كانوا يحملون صخور الأهرامات على كواهلهم، ويرفعونها بصدورهم وسواعدهم، ويحنو عليهم واديهم، فيُلقى فى حجورهم بحبه وثماره، ويملكون معظم العالم القديم، ويُلقى بين أيديهم بثرواته وكنوزه»[٢].

وإذا كان أستاذنا قد اهتم برصد الملمح، وتحديد بواعثه فإنه قد اهتم أيضًا بتحديد الوسيط الذى حمل هذا الملمح وعكسه وأعنى أن روح الفكاهة - كما يعتقد - لم تتجسد حقيقيًا فى فن أو أدب هذا الشعب مثلما تجلت فى لون أدبى، طال إهماله ونكرانه هو الأدب العامى لأنه - كما يقول - «كتب فى أكثره بلغتنا العامية، وكأننا انصرفنا عنه ترفعًا منّا، أو استصغارًا لشأنه مع أنه أكثر دلالة علينا، وعلى نفسيتنا من الأدب الفصيح الجاد»[٣].

إن الشخصية المصرية قد عرفت روح الفكاهة وعرفت بها، وصارت علامة عليها، واستطاع الفنان المصرى أن ينسج هذا الروح فنًا يشف عن جوهر هذه الشخصية، كما يشف عن الظرف التاريخى لروح الفكاهة نفسها، ولأن الشخصية المصرية شخصية مركبة تركيبًا تاريخيًا، فإن أستاذنا رأى أن البحث عن طبيعة هذه الشخصية - من خلال بحثه - يسير فى اتجاهين: الأول أن يبحث عن تجليات هذا الروح فى الأدب العامى أو الفصيح، وأن يتحرى هذا الروح الفكه فى كل ما يدل عليه، وهذا البحث يضرب فى أعماق العصور بداية من قدماء المصريين حتى العصر الحديث، وأستاذنا - فى هذا السبيل - لا يخرج عن إطاره العام الذى رسمه لأبحاثه، وهو الإطار التاريخى الذى يعتمد حركة التاريخ فى ظل منظومة من التقسيمات السياسية للعصور.

والواضح من دراسة المؤلف التاريخية أنه اهتم - فى كتابه - بمصر الإسلامية وعصورها. أكثر من اهتمامه بمصر الفرعونية واليونانية والفارسية والرومانية، على الرغم من أن هؤلاء - اليونان والفرس والروم - قد مكثوا بمصر طويلًا، وأثروا - بلا شك - فى شخصيتها وعقلها، كما أثرت فيهم الحضارة المصرية والإنسان المصرى، إلا أن اهتمام أستاذنا بمصر الإسلامية يؤكد ما سقناه فى بداية البحث - وهو أنه يؤمن بأن طبيعة الأمة العربية طبيعة خالدة ثابتة، وأن ما يحدث من تمايز بين أقطارها - من خلال درسه التراث - إنما هو من قبيل تمايز الأفراد الذى ينضوى فى كل واحد يعبر عنها، فإذا كانت مصر قد عرفت بروحها الفكه فإن الحجاز قد عرفت بالغناء، كما عرفت البادية بالغزل العذرى لديه، وكما عرفت العراق بالشعر السياسى وصراع الفرق وبشعر النقائض، وكل هذه التمايزات لا تدل على التباعد والانفصال عنده، قدر ما تدل على التقارب والالتئام والمحافظة.

---

(٢) نفسه. (٣) نفسه ص ٨ - ٩

أما السبيل الثانى، فإن أستاذنا يعتقد أنه من الضرورى أن ننظر إلى حياتنا نظرة كلية، لا تجعل الكل يهمل الأجزاء، ولا تجعل الأجزاء بديلاً عن الكل، فلا يكفى الأدب الجاد دليلاً على حياتنا الجادة، وكذلك الأدب العامى دليلاً على حياتنا الفكهة. فالأدبان كلاهما نتاج حياة واحدة امتزج فيها الجد والهزل، هى فى مجموعها حياة شعب واحد يخضع لصفة كلية واحدة، لذا - كما يقول - «من الواجب أن نقرن صفحة حياتنا الفكهة، بصفحة حياتنا الجادة حتى نطلع على حقيقة حياتنا اطلاعًا تامًّا أو كاملاً، وإنك لتجد مصر وشعبها ممثلين فى هذا الأدب العامى الضاحك، بأكثر وأقوى مما تجدهما فى الأدب الفصيح الخالى غالبًا من الضحك والهزل لسبب بسيط، وهو أنه ينبع من صميم الشعب وينطق عن روحه ومزاجه بدون أى تصنع أو تكلف»(٤).

إن الشخصية المصرية التى يدل عليها الروح الفكه من خلال الأدب العامى والشعبى، لم تكن شخصية مستكينة أو غافلة عن وظيفة هذه السمة، فإذا كانت عصور الشدة والظلم والقسوة، هى التى أنتجت هذا اللون من الأدب الساخر، وهى التى أورثت الإنسان المصرى روحه الفكه، فإن هذا الإنسان قد استخدم كل أسلحته الوجدانية والعقلية فى مواجهة ظالميه، والمعتدين على حريته وكرامته ومقدرات حياته، وقد التفت أستاذن إلى وظيفة هذا اللون من الأدب، الذى صور الوجدان الساخر من الظلم والطغيان، إنه قد تتبع تاريخ الشخصية المصرية الرافض المقاوم على اختلاف العصور، خاصة فى ضوء اهتمامه بالعصور الإسلامية التى مرت على الإنسان المصرى، ويقدم نماذج فعالة لهذه المقاومة، فقد وعى الإنسان المصرى أهمية الفكاهة قبل الجد فى مواقف الرفض والمقاومة، ودليل ذلك الصورة التى يقدمها أستاذنا، وهى حديثه عن «الفاشوش فى حكم قراقوش» لابن مماتى فى العصر الأيوبى.

فهو يقدم هذا النص على أنه نموذج من نماذج سخط المصريين على حكامهم الظالمين، «والحق أن ابن مماتى فى صنيعه بقراقوش، إنما يصور سخط المصريين على حكامهم الأيوبيين الأجانب، وينفس عما يضطرم فى صدورهم من غيظ وحرج، بنفس الطريقة التى طالما لجأوا إليها فى إعلان ذلك، وهى طريقة السخرية بهؤلاء الحكام، وإظهارهم فى صور مضحكة من الغباء والغفلة والبلاهة، ومعنى ذلك أن ابن مماتى فى هذا الكتاب يعبر عن مقاومة الشعب المصرى، لمن يحكمونه من غير أبنائه.. وهى مقاومة عرفت بها مصر منذ غزاها الفاتحون لعهد الفرس والإغريق والرومان»(٥).

إن كتاب «الفكاهة فى مصر» فى ضوء هذا النص ونصوص أخرى منه، يعد تأريخًا لسمة أساسية من سمات الشخصية المصرية، وهى سمة الفكاهة الموظفة، فلم تكن هذه السمة عبثًا

---

(٤) نفسه. (٥) نفسه - ص ٣٦

ولا ضياعًا للوقت ولكنها كانت سلاحًا فعالاً من أسلحة مقاومة الظلم، وتأصيل الحرية والحق، كما أن هذا الكتاب يكشف عن التفاعل التاريخى، للشخصية المصرية مع الآخرين سلبًا وإيجابًا، فعلى الرغم من أن هناك فاصلاً قويًا بين مرحلتين فى تاريخ هذه الشخصية، وهو تاريخ ما قبل الإسلام فى مصر وتاريخ مابعد الإسلام فى مصر، فإن الإنسان المصرى لم يكن ليغيب عن وعيه أن الحرية حق، وأن الظلم عدوان على هذا الحق، فقاوم الغزاة من الفرس واليونان والرومان، ورفض حكامه الظالمين من الأيوبيين والأخشيديين والفاطميين مع كونهم مسلمين، ولم يتغير موقفه إزاء حقه فى حريته وحياته الكريمة، وظل سلاح السخرية والفكاهة من أمضى أسلحته على مدى عصوره كلها حتى الآن.

ومن الواضح أن تاريخية هذه الصفة البارغة فى الشخصية المصرية لا يعنى ثباتها وعدم تطورها، فكل فترة تاريخية تنتج من الأدب ما يتفق مع المثل الجمالية السائدة، ومع المتغيرات العديدة فى الذوق والمشاعر والقيم والمواقف الوجدانية والنفسية، فإذا كانت الفكاهة روحًا ترجم عن نفسه فى نصوص أدبية دلت على الشخصية المصرية، فإن بواعث هذه الروح لابد أن تختلف من عصر إلى عصر، ومن ثم تختلف النصوص المعبرة عنها غير أن أستاذنا أدرك هذه الروح - روح الفكاهة - وهى أهم ما يميز المصريين عنده - على أنها روح خالدة ثابتة فى كل العصور، وأن حركة التاريخ بما تجلبه من تطور وتغير لم تنل من هذه الروح إلى حد أنك إذا نظرت إلى ديوان «نزهة النفوس ومضحك العبوس» وجدت - على حد قوله - «أن أغلب الديوان من اللفظ العامى الشعبى، ومن يطلع عليه يرى أنه لا تكاد توجد فوارق بين لغة هذا الديوان ولغتنا المصرية الدارجة الحديثة»(٦).

ويبدو أن هذا الإدراك متصل بإدراك أعم عنده مرتبط بطبيعة الحضارة الإسلامية العربية القائمة على وحدة الحكم ومركزية الثقافة، ووحدة التراث والارتباط الشديد بالأصول، وهذا ما أشرنا إليه فى صدر هذا البحث فمصر فى ظل هذا الفهم ما هى إلا إقليم من أقاليم هذه الحضارة ذات الطبيعة الخالدة المحافظة، وما يحدث من تمايز بين أقاليم هذه الحضارة يؤكد هذه الطبيعة ولا ينفيها.

وأيًّا كانت مصادر هذا الإدراك أو أسبابه، فإن أستاذنا يرى أن الشخصية المصرية ذات علاقة خاصة بحركة التاريخ وموقفها منه إذ يرتب على ما سبق حكمًا آخر، يقول«وربما كان فى ذلك بعض الدلالة على أن مصر بلد محافظ، وأنها لا تتطور إلا بقدر محدود»(٧).

ولأن البحث عن ملامح الشخصية المصرية وطبيعتها فى فكر أستاذنا أمر أساسى، فإن هذه

---

(٦) نفسه - ٦٧

(٧) نفسه.

الأحكام تجعلنا نترك قليلاً كتاب «الفكاهة فى مصر» ونقف عند كتابين من أهم كتب أستاذنا وهما «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» و«الفن ومذاهبه فى النثر العربى» لنرى صورة أوسع لإدراكه السابق.

إن موقف هذه الشخصية من التاريخ، موقف يدعو للتأمل، والكتابان يقدمان صورة هذه الشخصية، وهى صورة ممتة لما جاء فى كتاب الفكاهة.

إن هذه الشخصية لا تخضع لسنة التطور على الرغم مما مر بها من أمم وما خاضته من تجارب، وما حصلته من علوم ومعارف، فهى شخصية تحتوى كل من أراد أن يحتويها، ومع ذلك تظل محايدة فلا تتأثر بما احتوته - ويمكث فيها الهكسوس والأشوريون والفرس واليونان والرومان وتظل - كما يقول أستاذنا - «حافظة لشخصيتها وخصائصها الجوهرية، حتى بعد دخول العرب أنفسهم، فإنهم لم يستطيعوا أن ينفوا عنها شيئًا من صفاتها، بل رأيناهم - هم - يغرقون فى جداولها»[8] ومرد ذلك عند أستاذنا «أنها أمة محافظة» ومن مظاهرمحافظتها واستعصائها على التاريخ أن «الناس يعيشون كما كان يعيش آباؤهم وأسلافهم يربضون فى وديان النيل، فى تلك المياه المشبعة بالطمى. يديرون آلات لاتكاد تختلف فى شىء عن آلات أجدادهم، وأنهم ليحيون بطرق لا تختلف أيضًا كثيرًا عن طرق أسلافهم»[9].

ولكن، إذا كانت هذه طبيعة الشخصية المصرية، طبيعة مرتبطة بالماضى والأسلاف أكثر من ارتباطها بالحاضر، طبيعة نافرة من كل تطور متقابلة مع منطق الصيرورة والتغير، وهو منطق التاريخ، فكيف استمرت هذه الشخصية على مدى التاريخ دون أن تندثر على الرغم من جمودها ؟

إن إجابة هذا التساؤل يطرحها أستاذنا فى أسلوب مجازى، تتلخص فى أن مصر على مدى العصور، ماهى إلا معبد كبير مغلق الأبواب على مابه من نقوش ورسوم، وقد أتيحت له أسباب طبيعية من الجغرافيا جعلت أهله يعيشون عيشة مستقلة فى عاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم لم يتح لها ما أتيح لغيرها من أسباب التغير والتبدل، يقول أستاذنا إن «من يبحث مصر فى مختلف عصورها، يجدها أشبه ما تكون بمعبد كبير أغلقت أبوابه على طائفة من الرسوم والطقوس لا تتغير ولا تتبدل، بل دائما هى تظل كما هى فى كل حكم، وفى كل عصر، وهذا المعبد الكبير أتيحت له أسباب طبيعية جعلته يعيش عيشة مستقلة فى عاداته وتقاليده. ونقصد بتلك الأسباب

---

(٨) شوقى ضيف - الفن ومذاهبه فى الشعر العربى - دار المعارف - مصر - ٤٥٨.
(٩) شوقى ضيف - الفن ومذاهبه فى النثر العربى - دار المعارف - مصر - ٣٤١.

ما قام على أسواره من الصحراء الشرقية والغربية، فإنهما عزلتاه عن الاختلاط والانسياح فى الأمم الأخرى»[١٠].

ومما يكمل هذه الصورة الثابتة للشخصية المصرية فى فكر أستاذنا أن يكون من طبيعة مصر «أن لا تعنى عناية واسعة بالدرس الفلسفي وما يحتاجه من عمق، أو على الأقل كانت تلك طبيعتها فى العصر الإسلامى وقد يكون من أسباب ذلك ودوافعه ما عرف عن أهلها حينئذ من اللهو والدعة فإن ذلك جعلهم لا يميلون إلى العمق والتقصى والتحليل»[١١].

وإذا كانت هذه اللمحة الأخيرة تتفق مع جوانب صورة الشخصية المصرية، فإن هذه الصورة لدى أستاذنا يتنازعها جانبان - كما قدمها فى كتاب الفكاهة - وكتابى الفن ومذاهبه فى الشعر والنثر، الجانب الأول أنها كانت شخصية متفاعلة مقاومة رافضة من خلال ما تميزت به وهو الفكاهة بوصفها سلاحًا من أسلحة المقاومة، سواء فى عصور ماقبل الإسلام، أو فى العصر الإسلامى، الجانب الثانى من الصورة التى قدمها أستاذنا للشخصية المصرية، هو جانب الثبات والجمود، ولا نقول المحافظة وهذا الأمر لا يتوقف عند رفض الاحتكاك والفعل السلبى والإيجابى، بل يمتد إلى طبيعة العقل المصرى - خاصة فى العصر الإسلامى الذى لم يعن بالدرس الفلسفى بسبب ما يحتاجه من عمق غير متوفر فيه ومرد ذلك هو اللهو والتراخى، وهذان الجانبان كما يبدو متقابلان على الأقل هذا إن لم ينكر كل منهما الآخر.

فإذا تناولنا الجانب الأول، فإن الفكاهة ليست حالة، ولكنها موقف من الحياة والأحياء، يماثل الصمت احتجاجًا على الحياة والأحياء، ومن ثم فإن هذا الموقف يعكس فكرًا، تتغير صوره ومضامينه من عصر إلى عصر، وهذا ما لمسناه من تعدد النصوص وتباينها بتباين عصورها، وهى نصوص استعان بها أستاذنا فى تصوير الجانب الحركى الحيوى من الشخصية المصرية. وهذا الجانب يتفق مع الحقيقة الثابتة فى تاريخ الفكر وهى «أن فكر الإنسان وفلسفاته ليست إلا تعبيرًا عن حركة التاريخ وأداة المجتمع المتغير فى التعبير عن متناقضاته وعن غاياته»[١٢].

أما الجانب الثانى من الصورة، فإن العقل المصرى الذى وقف أول موقف تأملى وجدانى من الوجود، بحقائقه الظاهرة والغامضة، لا يمكن أن يكون مستعصيًا على حركة التاريخ وفهمها أو التخلف عنها، لذا فقد صاغ موقفه أول صياغة كلية عرفها التاريخ، وهذا ما يتفق أيضًا مع حقيقة يكاد أن يجمع عليها المؤرخون وهى «أن مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفه،

---

(١٠) نفسه - ٣٤١.
(١١) نفسه.
(١٢) لويس عوض - تاريخ الفكر المصرى الحديث - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٠ - ١١

فهى أول شعب ناقش تلك المشاكل الأخلاقية مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنا اليوم»[١٣].

ويمكن أن نؤيد منطق هذه الحقيقة بحكم تاريخى آخر يتصل بتاريخ العقل المصرى، وهو أنه «لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا من معرفة أن نظن أنه كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون»[١٤]. هؤلاء الحكماء الذين علموا اليونان فى بداية أمرهم، وتعلموا منهم فى مرحلة تاريخية تالية من مراحل تاريخ العقل المصرى، وتشهد على ذلك مؤلفات أفلاطون وأرسطو وبلوتارك ومدرسة الإسكندرية والفلاسفة العرب.

ولعلى بهذا الفهم أكون قد استطعت أن أربط بين جانبى الصورة التى قدمها أستاذنا للشخصية المصرية، بوصفها شخصية ذات أبعاد تاريخية وثقافية عاشت فى قلب التاريخ، دون أن تكون وحيدة الجانب، وهذا ما جعل روح الفكاهة والدعابة تغلبُ عليها.. !

د. أحمد يوسف
أستاذ النقد المساعد
جامعة الزقازيق - كلية آداب

(١٣) أ. و. توملين - فلاسفة المشرق - ترجمة عبد الحميد سليم - دار المعارف - ٣٠.
(١٤) نفسه.